

الباب الاول

حركة التوسع العقيدى والحضارى والسياسى للاسلام

مقدمة	ابعاد التوسع العقيدى والحضارى والسياسى للدولة الاسلامية
الفصل الأول	عوامل نجاح حركة التوسع العقيدى والحضارى
الفصل الثانى	عوامل التفكك السياسى في الدولة الاسلامية

مقدمة

اقترن القرن السابع الميلادي (الاول الهجري) بظهور الاسلام .كاخر رسالة سماوية تنهى عددا من الرسائل الالهية ، في وقت كان العالم فيه مهيا لنزول هذه الرسالة ، فالخلاف محتدم بين رثى العالم المسيحى بيزنطة شرقا وروما غربا حول موضوعات على جانب كبير من الاهمية بعضها يمس الوجدانية الربوبية والالهية (١) في اخص صفاته جل شأنه ، وعلاقة الاب بالابن وصفات كل منهما ، وحول مبدا الطبيعة الواحدة والطبيعتين المعروفة باسم Monophysite ، وبعضها يتناول الخلاف الايقونى حول مبدا وجود الصور والتماثيل في الكنائس . وقد عجزت المجامع التى عقدها كبار رجال الدين المسيحى عن ايجاد حلول لهذه المشكلات اللاهوتية بما في ذلك مجمع نيقية الذى عقد في سنة ٣٢٥ م ومجمع خلقدونية الذى عقد في عام ٤٥١ م (٢) هذا بالاضافة الى انتشار الوثنية والمذاهب المجوسية في معظم الانحاء وفي مقدمتها بلاد العرب ، اما عن الديانة اليهودية فقد تاهت مفاهيمها في نسخ العهد القديم المتباينة وكتب انبياء بنى اسرائيل وفي مقدمتها التلمود ، كل ذلك جعل من الضرورة بمكان اهمية نزول رسالة جديدة ترد على هذه التساؤلات وتقضي على هذه المتناقضات وتفتح الطريق امام البشر للايمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم نبى هذه الامة قد وُطد اركان الدولة الاسلامية عقائديا وفكريا وسياسيا وحضاريا واجتماعيا

(١) من اراد التوسع في هذا الجانب عليه قراءة كتاب تطهير الجنان : ابن حجر ص ١٢ وما بعدها .

(٢) للتوسع في هذه المجامع التى بلغ عددها واحد وعشرين مجمعا اقرأ Howell-Smith : A History of Roman Catholic Doctrine and Practice PP. 551—553.

في ظل دستور من الثروة القرآنية والسنة المحمدية فإن أولئك الذين خلفوه وتعلموا في مدرسته أن ينطلقوا بالدولة الإسلامية الى آفاقها بعد أن فتح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الباب على مصراعيه بالرسالات التي وجهها الى أقطاب العالم آنذاك والحملة التي جهزها قبل وفاته لغزو اطراف الشام بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة وتبناها أبو بكر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولعل أول ما خاضه المسلمون لبناء هذه الدولة - التي لم تكن لتغيب الشمس عن أراضيتها والتي خاطب هارون الرشيد في ظلها إحدى السحب قائلا « أذهبى وسيأتينى خراجك أينما توجهت » - الاحد عشر جيشا التي وجهها أبو بكر لقتال المرتدين في وقت واحد (٣) ، وما كاد ينتهي منها حتى انفذ خالد بن الوليد الى الحيرة كبدية للفتح الاسلامي في العراق وفارس وما والاها كما ارسل ابا عبيدة بن الجراح على رأس أربعة جيوش الى الشام وفلسطين يقودها يزيد بن معاوية وعمر بن العاص وشرجيل بن حسنة ، ولم يمض وقت قصير حتى تقوضت أملاك اكبر دولتين وقتذاك الفرس والروم ، واتجهت الجيوش العربية الى مصر ومن هناك تطلعت انظار المسلمين الى شمالي افريقية ، وخاض العرب عشر حملات في ستين عاما اوصلتهم الى شواطئ المحيط الاطلسي ثم امتدت تطلعاتهم عبر المضيق فاقتحموا شبه جزيرة ايبيريا وحكموا اسبانيا واقاموا حضارتهم العريضة في الاندلس ، ثم عبروا جبال البرانس يريدون احتلال بلاد غالة (فرنسا الحالية) وما وراءها . وفي نفس الوقت كانت جيوش الدولة الإسلامية واساطيلها تدق بمطارقها بينظة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وكان من الممكن أن يتحول البحر الابيض المتوسط الى بحيرة اسلامية كما كان الحال في عهد الرومان ، ولكن غياب سياسة اسلامية واحدة اوقف هذا التقدم الى حد ما ، وان كان ذلك لم يمنع المسلمين من احتلال كل جزر البحر المتوسط بما فيها قبرص ورودس وصقلية .

أما التوسع الاسلامي نحو المشرق فقد بلغ أوجه في عهد الدولة الاموية وازداد اتساعا في عصور الدولة العباسية ، وكان أقصى ما وصل اليه الاتساع شرقا في عهد الدولة الاموية في خلافة عبد الملك بن مروان والوليد

(٣) ابن جرير الطبري : تاريخ الامم والملوك ح ٣ ص ٢٢٧ .

ابن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وحين تذكر عملية الاتساع الاسلامى شرقا فلابد ان يقترن ذلك بأسماء قيادات اسلامية لا تقل عن تلك التى أسهمت في عملية الاتساع الغربى مثل « عقبة بن نافع » و « موسى بن نصير » « وطارق بن زياد » و « عبد الرحمن الفافقى » ، فعلى الجانب الشرقى للدولة كان هناك « المهلب بن أبى صفرة » « وقتيبة بن مسلم الباهلى » الذى أوغل في بلاد ما وراء النهر حتى وصل الى دلتا « نهر جيحون » والممالك الواقعة قرب « نهر سيحون » المتاخمة لبلاد الترك (٤) ، وكذلك « محمد بن أبى القاسم » الذى فتح بلاد الهند وتوغل في شبه القارة الهندية (٥) .

أما في عهد الدولة العباسية فقد تمكن محمود الغزنوى بين عامى ٣٩٢ ، ٤١٥ هـ من القيام بحركة جهاد دينى في اعماق بلاد الهند مستهدفا نشر الاسلام هناك حتى انه نذر على نفسه غزو الهند في كل عام (٦) وفي ذلك يقول المستشرق « ولسلى هيچ » (٧) « ليس من شك في ان انتصارات الغزنوى في الهند جعلت بعض المؤرخين يعتبرونه سلطانا هنديا خالصا ، فقد فتح في خريف حياته اقليم البنجاب ، ونشر الاسلام في ربوع الهند ، وفتح طريقا سلكه بعده الكثيرون من خلفائه ، وكون المسلمون بفضل ذلك اسرا هنديا خالصة » ويقول ستاقلى لين بول (٨) S. Lane Poole « يمكن اعتبار حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم « لاهور » مقرا لهم البداية الحقيقية للحكم والوجود الاسلامى في هذه البلاد ، فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور الطريق امام « محمد بن سام الفورى » (٩) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ونشروا نفوذ المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية كافة » .

ويذكر ابن خلكان (١٠) ان محمود الغزنوى وصل في فتوحاته في

(٤) تاريخ الطبرى : الجزء السادس احدث سنوات ٩٣ - ٩٦ هـ .

(٥) فتوح البلدان : ح ٥ ص ٦١٢ - ٦١٤ .

(٦) ابن خلكان : ح ٢ ص ٨٥ .

Haig, W. : Encyclopaedia of Islam, Vol. II: P. 134.

(٧)

S. Lane Poole : The Mohamadan Dynasties, P. 284.

(٨)

(٩) حكمت الدولة الغزنوية بلاد افغانستان و هندستان من سنة

٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) الى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

(١٠) وفيات الاعيان ح ٢ ص ٨٥ .

الهند الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية ، وبني بها المساجد والجوامع
مكان بيوت الاوثان والاصنام (١١) .

اما عن حركة الدعوة العقيدية فيحدثنا عنها باسهاب كتاب «الدعوة الى
وجنوبا وشمالا قاصرا على حركة الجيوش الاسلامية وحدها ، وانما
اقتربت بذلك حركتان على جانب من الاهمية هما حركة الدعوة العقيدية
وحركة التجارة الدولية في العصور الوسطى .

اما عن الدعوة العقيدية فيحدثنا عنها باسهاب كتاب « الدعوة الى
الاسلام » الذي ألفه السير توماس ارنولد Sir Th. W. Arnold (١٢)
والذي تناول فيه كيف انتشرت الدعوة الاسلامية بين الشعوب المسيحية
في آسيا الغربية ومسيحيي افريقية واوروبا المسيحية وفي مقدمتها
اسبانيا وفي فارس واواسط آسيا والهند والصين وأرخيل الملايو ،
واكثر من ذلك يوضح لنا هذا المؤلف القيم كيف استطاع الاسلام أن ينتشر
بين غزاته من المغول والتتار الذين قوضوا الدولة العباسية وقضوا عليها
في ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م .

اما عن حركة التجارة الدولية فيكفي أن نذكر أن المسلمين كانوا
يسيطرون في العصور الوسطى على معظم الطرق التجارية الدولية ، وكانت
العواصم والمدن الاسلامية في شتى انحاء العالم تمثل عصب الحركة
التجارية الدولية ، تلك الطرق التي جابها الرحالة والجغرافيون المسلمون
ووصفوها لنا في مؤلفاتهم القيمة ، وفي مقدمة هؤلاء « محمد بن عبد الله
المعروف بابن بطوطة » في كتابه « تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب
الاسفار » ، « ومحمد بن أحمد الشهير بابن جبير » في رحلته « تذكرة
بالاخبار عن اتفاقات الاسفار » ، « وأبو القاسم بن حوقل » في مؤلفه
« المسالك والممالك » « وأبو القاسم عبيد الله (ابن خرداذبة » في كتابه
« المسالك والممالك » « والمسعودي » في « مروج الذهب ومعادن الجوهر »
« والمقدسي » في « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » (١٣) .

(١١) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب العتبي : تاريخ
اليمني. وشرحه « الفتح الوهبي على تاريخ ابي نصر العتبي » .

(١٢) ترجمه الى العربية د. حسن ابراهيم حسن و عبد المجيد عابدين
واسماعيل النحراوى ويعتبر هذا الكتاب افضل ما كتب الى الان في الدعوة
الى الاسلام .

(١٣) اقرا زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

ان مجرد الاطلاع على هذه المؤلفات يوضح لنا الى اى حد كان المسلمون يمثلون في هذه العصور اكبر قوة سياسية وحضارية واقتصادية عرفها التاريخ لدرجة انهم كانوا يتحكمون في هذه الطرق التجارية الدولية البرية والبحرية الرئيسية وهى : -

الطريق التجارى من الصين والهند عبر الخليج العربى الى البصرة حيث تتوغل فروعه في قلب العالم الاسلامى الى بغداد وديار بكر ودمشق والموانى الاسلامية على البحر الابيض المتوسط واهم مراكزه التجارية الاسلامية « هرمز » و « سراف » و « قيس » و « البصرة » و « الابله » و « بغداد » و « دمشق » و « حلب » (١٤) .

الطريق التجارى الدولى الثانى الذى كان يمر عبر البحر الاحمر مارا بموانى « عدن » و « جدة » و « ينبع » و « عيذاب » و « القلزم » و « الطور » و « بولاق » و « الاسكندرية » و « دمياط » و « رشيد » (١٥) .

اما الطريق الثالث الذى كان يمر بقلب العالم الاسلامى في اواسط اسيا مارا « ببخارى » و « سمرقند » و « بغداد » و « دمشق » و « حلب » وبقية الموانى الاسلامية على البحر المتوسط فقد كان المسلمون يسيطرون عليه سيطرة سياسية واقتصادية وامنية شاملة .

كل ذلك يوضح لنا الى اى حد كان المسلمون يشكلون اكبر قوة مادية وسياسية وحضارية وروحية في العالم .

وهنا يجب علينا ان نتوقف لنحاول تحليل العوامل الكامنة وراء هذا الكيان الواسع الذى لم ير له التاريخ مثيلا في مختلف عصوره ونحن لا ننكر قيام بعض الدول والامبراطوريات في العصور القديمة والوسيطه والحديثة الا انها لم تكن تملك كل نواحي هذا الشمول العقيدى والفكرى والمادى والتوسعى الذى كاد يغطى معظم أرجاء العالم المعروف وقتذاك ، وليس من شك في أن هذه الظاهرة التاريخية الفريدة استرعت انظار كثير من العلماء المسلمين والمستشرقين الذين تناولوا ذلك الموضوع بالدراسة والتحليل .

Wilson, A. : The Persian Gulf, P. 102.

(١٤)

Day Clive : A History of Commerce, P. 55.

(١٥)

الفصل الاول

عوامل نجاح حركة النوسع العقيدى والحضارى والسياسى

- اولا : عدم التناقض بين العقيدة والفكر .
- ثانيا : الاعتراف بالديانات الكتابية السابقة .
- ثالثا : النظرة الشمولية للحياة في الاسلام .
- رابعا : الافادة من الحضارات السابقة وامتصاصها .
- خامسا : الاخذ بمبادئ العدل والحرية والمساواة .
- سادسا : الدور الناتى في الدعوة الى الاسلام .
- سابعا : غلبة الايمان بالعقيدة على الحركات الانفصالية .
- ثامنا : وحدة مصادر التشريع وارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامى بعد الهجرة .

«أولا» عدم التناقض بين العقيدة والفكر :

أهم ما يميز الاسلام انه لا يقيم اية حواجز بين العقيدة والفكر الاسلامي، والقرآن الكريم ملئ بالآيات التي تتناول المعرفة في مختلف فروعها وتوجه الانسان المسلم الى التعميق في أغوارها والبحث في أدق تفاصيلها ولو اردنا أن نتعرض لهذه الآيات تفصيلا لما اتسع هذا الكتاب لذلك ولكننا نجتزئ من هذه الآيات اقل القليل لننتقل من الحديث الوصفي الى الادلة الموثقة .

يذكر القرطبي (١) نقلا عن ابن الطيب ان أول ما نزل من القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذي خلق » الى قوله تعالى « الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل (٢) « ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل » . وفي قوله تعالى « أفمن يعلم كمن لا يعلم » ، و « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات » (٣) .

إذا قارنا هذا بما حدث بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون حين وقفت الكنيسة الغربية في روما موقف العداء من مناهج المدارس الفلسفية واحراق مؤلفاتها واصدار قرارات الحرمان ضد مؤلفيها ومنع جامعات العصور الوسطى من تدريسها ، أدركنا الى اى حد لم يكن هناك تناقض في المناهج العلمية بين العقيدة الإسلامية وبين الأخذ بكثير من العلوم العقلية حتى منها التي عربها علماء المسلمين عن اليونان والرومان وغيرهم .

ولم يكد يأت القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى كانت الحضارة الاسلامية قد وصلت أوج عظمتها وكان من بين رواد العلوم العقلية علماء من مختلف الشعوب التي اعتنقت الدين الاسلامي في المشرق والمغرب الاسلاميين .

لقد اتاحت هذه السمة الواضحة للعقيدة الاسلامية أن يعتنق العديد من ملايين البشر الديانة الاسلامية ، بل ان نطاق معتنقي هذه العقيدة تخطى الحدود السياسية للدولة الاسلامية داخل الصحراء

(١) الجامع لاحكام القرآن ح ١ ص ٥٩ .

(٢) آية رقم ٧٦ .

(٣) سورة فاطر آية ١٩ — ٢٢ .

الافريقية وعلى سواحلها الغربية والشرقية والجنوبية وفي اعماق القارة الهندية والسواحل الجنوبية والشرقية لآسيا وهى كلها من المناطق التى لم تطأها قدم جندى اسلامى واحد ولم تضمها ارجاء الدولة الاسلامية الشاسعة (٤) .

« ثانيا » الاعتراف بالديانات الكتابية السابقة :

كان اعتراف الاسلام بالرسالات والكتب السماوية السابقة عليه واعتبارها من التنزيلات الالهية ، واحترام وتقدير رسلها وانبيائها من بين العوامل التى حببت الكثيرين من اصحاب هذه الديانات في الاسلام ، وتوجيههم الى اعتناقه والاخذ بمبادئه ، فلم يحاول الاسلام ان ينسخ ما سبقه من اديان او يقلل من شأنها او من شأن معتنقيها وانما على العكس من ذلك صور القرآن الكريم هذه الرسالات السماوية في احسن صورة ، ولذلك راينا الاعداد الغفيرة من الشعوب التى دخلها الاسلام تعتنقه عن رغبة وطوعية خاصة وان المسلمين لم يحاولوا فرض العقيدة بالسيف او بالاكراه كما فعل من سبقهم وكما فعل من جاء بعدهم ، وانما كانوا يتركون امر اعتناق الاسلام للرغبة الصادقة عن اقتناع وتفكير ، وكان الخراج والجزية على اهل الذمة يقابله العشر والزكاة عند المسلمين بل كان يضاف على المسلمين ضريبة الدم والذود عن أمن الدولة وحدودها وثغورها .

ولقد ساعد على تفهم هذه الشعوب لمبادئ العقيدة انتشار اللغة العربية بانتشار الفتوحات الاسلامية وتعلم هذه الشعوب لها وقراءة القرآن الكريم والاحاديث النبوية وكتب الفقه والشرعة .

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء وظهور المذاهب الاسلامية بظهور الاجتهاد الا ان ذلك لم يصل في يوم من الايام الى حد الخلاف على المبادئ الاساسية للعقيدة وهو امر افتقدته كثير من العقائد الاخرى مما ترتب عليه اختلافات جذرية كان لها اسوأ العواقب .

ومن هنا كان اقبال الافراد والشعوب على اعتناق الاسلام واتساع

(٤) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب « الدعوة الى الاسلام » للسير توماس آرنولد ترجمة حسن ابراهيم وعابدين .

رفقته وآفاقه ظاهرة تاريخية دعت الكثيرين من المستشرقين الى محاولات الاجتهاد في تفسيرها .

« ثالثا » النظرية الشمولية للحياة في الاسلام :

ان نظرة الاسلام الى الحياة الانسانية - مستمدة من الكتاب والسنة - تستبعد تماما نظرية الرهبانية في الاسلام وتجعل من العقيدة الاسلامية مظلة لكل ما يهم الحياة الانسانية من أمور الدين والدنيا ، ومن هنا تناول القرآن الكريم كل ما يمس جوانب الحياة والعلاقات بين الافراد في الاسرة والمجتمع والاهتمام بالجوانب الخلقية والسلوكية والثقافية لتكوين الشخصية الحضارية المسلمة مع التركيز على تقنين وتنظيم كل هذه المعاملات في اطار من الرقابة التنظيمية المرتبطة بالمنهج العلمى الصحيح . واذا كان العرب قد ادركوا الاول وهلة دور هذا الدين الجديد في معالجة كل جوانب حياتهم الخاصة والعامة فان الشعوب التى انضوت تحت لواء الاسلام لم تلبث ان ادركت نفس الادراك ووجدت في العقيدة الاسلامية اجابة عن كل أمورهم الدنيوية والاخرية وتطويها لكل مشاكل الحياة بما فيها الاحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية والمنطلقات الفكرية .

ومن هنا لم تجد هذه الشعوب في الاسلام سوى سلطة واحدة تشرف على الشؤون الدينية والزمنية معا ، ولم يكن للدين الاسلامى رجال يحتكرون علوم العقيدة والشريعة والفقه ، وانما كان هناك علماء يتفقهون في علوم الدين دون ما تدخل بين الخالق والمخلوق .

« رابعا » الافادة من الحضارات السابقة وامتصاصها :

تفريفا على ما سبق أن ذكرناه من عدم التناقض بين الفكرة والعقيدة رايانا الاسلام لا يرفض ما سبقه من نظم سياسية وقيم حضارية ونظريات علمية بل على العكس من ذلك استفادت الدولة الاسلامية من كل النظم والحضارات السابقة واضطر علماء المسلمين في سبيل ذلك الى اجادة اللغات الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية ونقل تراث ومؤلفات هذه الحضارات والثقافات الى اللغة العربية ، ولم يكتف المسلمون بمجرد ترجمة ونقل هذا التراث وانما اضاف وحذف وابتكر كثيرا من الحقائق والمعلومات ويذكر المستشرق هاكنز

Haikins

في كتابه عن دراسات في تاريخ العلوم في العصور الوسطى (٥) . ان عددا كبيرا من المؤلفات اليونانية واللاتينية فقدت اصولها ولم تعرفها جامعات اوربا في العصور الوسطى الا من خلال التراجم العربية التي تم معظمها في العصر العباسي الاول .

وليس من شك في أن تقدير الحضارة الاسلامية لما سبقها من حضارات والدور الكبير الذي قامت به في التأثير على الحضارات الاوروبية الوسيطة والحديثة اكسب العقيدة الاسلامية تقديرا وحبا وانتشارا .

« خامسا » الأخذ بمبادئ العدل والحرية والمساواة :

اهتم الاسلام بابرار الشخصية الانسانية وتميزها على كل ما خلقه سبحانه وتعالى من كائنات أخرى ، مصداقا لقوله تعالى في سورة الاسراء « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٦) .

ويرى كثير من علماء الفقه الاسلامي ان الوجدانية وهي اول اركان الاسلام الخمسة قصدت الى جانب اعلاء ذات الله سبحانه وتعالى وافراجه بالصمدية ووحدة الالهية الاعلاء أيضا من شأن قدر الانسان وتنزيهه عن السجود لغير ذاته العلية لان في ذلك اهدار لكرامته وكيف يستطيع مفقود العزة والكرامة أن يسعى لتأصيل اى معنى من المعانى الحضارية في نفسه .

وكان اصرار الرسول صلى الله عليه وسلم في فجر الدعوة من الدور المكي على تحرير المسلم من عبودية الجاهلية بمختلف صورها اول دروس الانسانية في ادراك مفهوم العدالة والحرية والمساواة ، ذلك الشعار الذي بدا المفكرون المعاصرون في نشره منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، بينما كان خليفة المسلمين الاول قد اقره في اول مادة من مواد الحكم الاسلامي في خطابه الهام عشية اختياره لخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكانت كل محاولة لنقض هذا المبدأ بين الشعوب التي اعتنقت

Studies in the History of Med. Scinece, P. 30.

(٥)

(٦) آية رقم ٧٠ سورة الاسراء .

الاسلام تثير نقاشا وحوارا يرجع فيه الجميع الى المصادر الاصولية في الاسلام من قرآن وحديث وسنة .

ويرجع كثير من المستشرقين المنصفين دوافع انتشار الاسلام بهذه السرعة المذهلة الى هذا المبدأ الاساسي من مبادئ الدولة في الاسلام .

« سادسا » الدور الذاتي في الدعوة الى الاسلام :

لم تعتمد العقيدة الاسلامية في انتشارها في أرجاء القارات على مؤسسات تنظيمية وارساليات تبشيرية وميزانيات معتمدة تستهدف اغراء الناس باعتراف الاسلام ، ولكنها اعتمدت على الجهود الذاتية المنبعثة عن عمق العقيدة في قلوب اصحابها نخس من هؤلاء علماء الاسلام وفقهاؤه والرحالة والتجار والجغرافيون والعلمون ، كما اعتمدت ايضا على اهتمام التجمعات الاسلامية بانشاء الجوامع والمساجد والمدارس والكتاتيب وغيرها من الابنية الدينية والتعليمية التي كانت تقوم اساسا على الجهود الذاتية والتبرعات المادية والعينية .

ولعل مما يثير التساؤل عند كثير من المفكرين ظاهرة عمق العقيدة الاسلامية في بلاد لم تطأها قدم جندي اسلامي واحد في شرق وغرب وجنوب افريقية وجنوب شرقي آسيا حتى ان هؤلاء المسلمين خاضوا وما زالوا يخوضون لعدة قرون حروبا ضد المستعمرين والاغلبيات المسيحية على الرغم من عدم التكافؤ في المال والسلاح .

ويصف المستشرق بيكر Beker (٧) هذه الظاهرة في افريقية أنها ترجع الى ان عملية التبشير المسيحية المنظمة الممولة من المؤسسات الكنسية كانت ترتبط في اذهان الافارقة بالعملية الاستعمارية مما كان يؤدي الى نفور الكثيرين منها ، بالاضافة الى عملية « التعميد » التي لم يكن يتقبلها الافارقة بسهولة اذا قورنت بسهولة وسماحة ويسر اعتناقهم للاسلام حيث لم تكن تحتاج الى اكثر من النطق بالشهادتين واداء الارقان الاسلامية الاساسية .

فالدويلات الاسلامية في المغرب العربي لعبت دورها الكبير في نشر الاسلام في افريقية وتعمقه في الصحراء الغربية الموحشة بل ان دولة

الاغالبية في تونس لعبت دورا واضحا في نشر الاسلام في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا وكذلك فعلت الدولة الاموية في الاندلس .

اما في المشرق فيكفى الحديث عن الدور الكبير الذي قامت به الدولة الفزنوية في الهند وكيف تسرب الاسلام من شبه القارة الهندية الى جزر جنوب وجنوب شرق آسيا .

« سابعاً » غلبة الايمان بالعقيدة على الحركات الانفصالية :

ليس من شك في أن الحركات الانفصالية عن جسم الدولة الاسلامية في العصر العباسي الثاني كان لها اثرها على قوة الدولة السياسية خاصة بعد أن سيطرت العناصر الدخيلة على عاصمة الخلافة تركية أو بويهية أو سلجوقية ولكن هذا التأثير لم يمتد الى الجوانب العقيدية والفكرية ، حتى ان القيادات الادارية والتنظيمية للدويلات الاسلامية الشرقية والغربية كانت شديدة الولاء والانتماء للعقيدة الاسلامية حيث انها كانت تعتبر هذا الايمان جسر بقائها واستمرارها في قواعدها وكانت وسيلتها الى تمكين هذا التعبير تكمن في الجوانب التالية : -

١ - كثرة اهتمامها ببناء المؤسسات الدينية وفي مقدمتها الجوامع والمساجد ومدارس تحفيظ القرآن الكريم وتدرّس الفقه والحديث والشريعة واللغة العربية ونجد ذلك واضحاً في الدويلات الاسلامية المستقلة كالطولونية والاخشيديّة والايوبية والمملوكية . فقد كثر تشييد السبل والتكايا ومدارس تحفيظ القرآن اضافة الى الجوامع والمساجد ، وما حدث في القسم الغربي من الدولة الاسلامية حدث في قسمها الشرقي .

٢ - الاهتمام باجتذاب الفقهاء والمحدثين وغيرهم من علماء الدين ، الذين ساعد اجتهادهم ومؤلفاتهم ومناظراتهم على تعميق وتاصيل العقيدة الدينية عند الناس لدرجة ان سمعة هؤلاء العلماء كانت تجذب اليهم التلاميذ والمريدين من مختلف أنحاء العالم الاسلامي وانتشرت المذاهب الفقهية خارج نطاق حدودها كما حدث بالنسبة للفقه المالكي الذي انتشر في شمالي افريقية والمغرب والاندلس وفقه الاحناف الذي انتشر في شرق العالم الاسلامي .

٣ - الاهتمام بنشر الديانة الاسلامية سواء كان ذلك بعمليات التوسع

التي سبق ان تحدثنا عنها في الهند وشرقى آسيا أو عن طريق الفقهاء والعلماء والتجار الذين نشروا العقيدة في المجهل الافريقية والجزر المتناثرة في جنوب شرقى آسيا .

وهكذا لم تكن للحركات الانفصالية تأثيرات عكسية على نشر العقيدة الاسلامية وشيوعها بل كانت على العكس من ذلك عاملا من عوامل انتشارها وذيوها .

ثامنا :وحدة مصادر التشريع وارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامى بعد الهجرة :

لدراسة هذا العامل لابد من الاشارة الى النقاط التالية :

- (١) وحدة مصادر التشريع في الاسلام .
- (ب) الوحدةانية والتكوين الحضارى للشخصية المسلمة .
- (ح) وضع الاصول التكوينية للمجتمع الاسلامى .
- (ع) ارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامى بعد الهجرة .

وفيما يلى تفصيل لهذه النقاط :

أ - وحدة مصادر التشريع في الاسلام :

لقد انزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم موزعا على ثلاث وعشرين سنة منذ البعثة حتى الوفاة ، في مائة واربع عشر سورة تضم مائتين وأربعين ربعا في ثلاثين جزءا ، وتحوى بضعا وستة آلاف آية كريمة (٨) نزل بمكة منها سبع وثمانون سورة . ونزل بالمدينة سبع وعشرون سورة بعدد غزواته صلى الله عليه وسلم (٩) . قام رسول الله باملائها على كتاب الوحي ووزعها وبوبها ورتبها قبل وفاته كما أوحى اليه على لسان جبريل عليه السلام وهى نقطة هامة يجب التركيز عليها حيث أن بعض غلاة المستشرقين حاول ان يصفى نوعا من الشكوك حول هذه الحقيقة التاريخية اسوة بما حدث لبعض الكتب السماوية السابقة مستغلين اختلاف بعض السلف ممن آثر قبل تدوين «المصحف الامام» (١٠).

(٨) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٦٥ .

(٩) بلغ عدد سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم سبع واربعون

انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، د ٢ ص ٦٢٥

(١٠) مصحف عثمان .

ان يقدم المكي على المدني وقد نبه الى ذلك الشيخ أبو بكر الانباري في كتاب « الرد » بقوله « ان الله سبحانه وتعالى انزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ثم فرق على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل في امر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريل الرسول على موضع السورة والآية ، فانساق السور كانساق الآيات والحروف ، كله من محمد خاتم النبيين عن رب العالمين فمن اخر سورة مقدمة او قدم سورة مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والكلمات وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ضعوا هذه السورة وضع كذا وكذا من القرآن الكريم » (١١) .

ولعل حرص الرسول صلى الله عليه وسلم في الا يحدث للقرآن بعض ما حدث للكتب السماوية الأخرى من ضياع وتغيير واختلاف امره لصاحبه وكتاب الوحي الا ينشغلوا بتدوين غير القرآن حتى ما كان من احاديثه صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١٢) .

من اجل ذلك كان القرآن الكريم وما يزال المصدر الرئيسي الذي لا يختلف عليه اثنان وحتى في بعض الاوقات التي انفردت فيها عقد الوحدة السياسية الاسلامية وتعددت الفرق والملل والنحل والاحزاب والدويلات ظل القرآن الكريم المصدر الرئيسي الذي لا يتغير والدستور الملهم الموحد اينما وجد المسلم في ظل دولة اسلامية او غير اسلامية . وكان المختلفون سياسيا وحزبيا وانتمائيا يحاولون قدر الامكان دعم وجهات نظرهم بالقرآن فلا اصحاب الفكر الملتزم من طلاب المنهج المدرسي ، ولا اصحاب الفكر العقلاني من طلاب المنهج الفلسفي يختلفون حول المصدر الرئيسي الذي يحاول كل فريق منهم ان يتخذ منه سندا لشرعية تفسيره للامور اضافة الى السنة الكريمة والاحاديث الصحيحة .

هذا المصدر الموحد للتشريع في الدولة الاسلامية منهجا ونظاما ومرجعا كان اعظم العوامل في ظاهرة القوة والتوسع والانتشار التي صاحبها لم يتأثر بالضعف السياسي الذي انتابها في بعض مراحل وجودها وانما كان في

(١١) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ح ١ ص ٦٠

(١٢) سورة الحجر : آية رقم ٩

كثير من الاحيان يشكل عامل التوازن بين الصعود والافول في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ويفسر المعادلات الصعبة التي كانت تنشأ في ازمة اخرى ، بل انه كان الراد الذي تنهل منه الاقليات الاسلامية اينما وجدت ، مما ادى الى حقيقة تاريخية وحيدة وفريدة ومحيرة هي قدرة المسلمين على الصمود اينما وجدوا واينما كانوا .

ولقد شرع القتال والجهاد على المسلمين في القرآن الكريم في مواضع متعددة دفعتهم الى توسيع رقعة الدولة الاسلامية عاما بعد عام ، في حالة الدفاع عن النفس كما جاء في قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . ومن اجل استرداد الحق عملا بقوله « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » . ولنصرة المظلوم حيث قال جل شأنه : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » . كما شرع القتال والجهاد لواد الفتنة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » . والقتال والجهاد في سبيل الله للاعلام بالاسلام والاستشهاد في سبيل الدعوة كان علم الجيوش الاسلامية اينما اتجهت كما جاء في الآية الكريمة « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

ب - الوجدانية والتكوين الحضارى للشخصية الاسلامية :

الوجدانية ركن اساسي من اركان الاسلام ، وهي الى جانب ما تستهدف من عظمة وانفراد الله سبحانه وتعالى بربوبيته والوهيته وصفاته التي لا يدرك كنهها الا هو تستهدف ايضا اعلاء قدر الانسان وتفضيله على غيره من مخلوقات الله فالسجود للأوثان والاصنام وغيرها من المخلوقات الالهية والمصنوعات الانسانية اهدار لكرامته وانقاص لآدميته ووصل الامر الى ان بعض الفقهاء يرون في الرياء والنفاق لونا من الوان الشرك بالله لان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وميزه على غيره من الكائنات ومن هذه النقطة الهامة في الفهم الاسلامي تبرز حقيقة وجود الشخصية الحضارية الاسلامية الراضة لكل معنى من معانى الرق والاستعباد واستعذاب كل اذى قد يصادفه في سبيل تحقيق هذا المصير . وهكذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع المسلمين على اول طريق الحرية والمساواة واحترام آدمية

الانسان ومن هنا كانت وقفة السابقين من المعذبين في الاسلام ضد اسيادهم السابقين ، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الدعوة للاسلام والاستشهاد في ميادين القتال في غير نكوص او ادبار عملا بقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنم وبئس المصير » (١٣) .

وحين يصل المرء الى حقيقة التعرف على شخصيته في اطار عقيدة تحترم وجوده وكيانه واستقلاله وحرية يصعب على اية قوة مهما كان حجمها ان تقف في طريقه ، وهكذا كان اكتشاف المسلمين لحقيقة شخصيتهم في ظل الاسلام عاملا اساسيا في ظاهرة التوسع الاسلامي الشمولي عقيدا وسياسيا وعسكريا وحضاريا .

ح - وضع الاصول التكوينية للمجتمع الاسلامي بوجه عام :

لعل اهم ما يلفت نظر الباحث في العقيدة الاسلامية ان من بين المائة واربع عشرة سورة التي يتضمنها القرآن الكريم سبع وثمانين سورة نزلت كلها في مكة اى في فجر الدعوة كلها تتجه الى ارساء وتكوين المجتمع الاسلامي في مختلف جوانبه ، لم تترك شاردة او واردة الا وتناولتها بالتوجيه والتوضيح الكامل فالجوانب الخلقية والسلوكية لها اياتها التي ركزت عليها ، والعلاقات الانسانية والمعاملات الخاصة والعامة لها مضامينها ، وقواعد الاحوال الشخصية واركان العبادات فصلت تفصيلا ، والدعوة الى العلم والمعرفة الشاملة في مختلف جوانب الحياة قضت على كل ما يؤدى الى تناقض بين العقيدة والعلم ، كل ذلك في آيات محكمات رائعات تكونت منها الصفوة القائدة في كل المجالات .

(١٣) سورة الانفال آية رقم ١٥ ، ١٦

اهتم المستشرقون بتفسير هذه الآية الكريمة لانهم وجدوا فيها اجابة لكثير من التساؤلات عن اسباب انتصار المسلمين في كثير من الغزوات على اعدائهم على الرغم من ضآلة عددهم في معظم الاحيان وقلة عددهم وبداءة اسلحتهم خصوصا عندما تتفق الروايات الاجنبية مع الروايات العربية في وصف هذه المواقع واهتم المستشرق الايطالى امارى في كتابه عن تاريخ المسلمين في جزيرة صقلية بتحليل هذه الظاهرة وقال ان المسلمين كان يحرم عليهم الادبار أو النكوص على أعقابهم متى بلغ عددهم « الزحف » اى اثنا عشر الف ، ومن هنا كانت تكمن الاسرار العميقة وراء هذا الصمود في القتال الذى اثار دهشة المؤرخين .

ولعل ابرز ما يسعى اليه المصلحون اليوم - على الرغم مما بلغه الانسان من حضارة علمية وتقنية - هو البحث عن مضامين خلقية وسلوكية وعقيدية تحول بين هذا التطور الهائل وبين هاوية السقوط او الانفجار . لقد استطاع الاسلام ان يضع القواعد لكل هذه الاصول التكوينية في المجتمع الاسلامي فاندفع بكل الطاقات خارج الجزيرة العربية الى كل اطراف الارض .

انظر الى قوله تعالى لتتظير القيم الاخلاقية والسلوكية في المجتمع الاسلامي على سبيل المثال لا الحصر : « انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بأيات الله » . « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، « وجادلهم بالتى هي احسن » ، « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » ، « ادفع بالتى هي احسن السيئة » وقوله في وصف المؤمنين « الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، « الذين هم عن اللغو معرضون » ، « الذين هم للزكاة فاعلون » ، « الذين هم لفروجهم حافظون » وحين ينصح لقمان ابنه يقول : « يا بنى اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » ، وقوله تعالى « لا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم » .

وتناول القرآن الكريم العلاقات الاسرية والاجتماعية والانسانية بصورة لو تحققت لمجتمع كان خير المجتمعات تكوينا وانشاء .

د - ارساء قواعد ونظم الحكم الاسلامي بعد الهجرة :

واجه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته الى المدينة عددا من القضايا العامة منها ما يتصل بالوحدة التكافلية بين المهاجرين والانصار ، والوحدة الوطنية بين المسلمين واهل الذمة ، ومنها ما يتصل بالجهاد في سبيل الله ، ونظام الحكم في الدولة الجديدة ، مما جعل من السور المدنية في مجملها تفصيلا لما سبق اجماله في الدور المكي في هذه القضايا وغيرها ، وان مجرد النظر الى اول صحيفة وضعها الرسول لمجتمع المدينة والموضوعات التي تناولتها (١٤) يدرك الى اى حد ارسى رسول الله دعائم الدولة الاسلامية في قواعد وبنود ساعدته صلى الله عليه وسلم في اجتياز الصعوبات التي صادفته في الداخل والخارج ، فالى جانب التنظيم الدقيق

(١٤) ابن هشام : سيرة النبي ح ٢ ص ٩٤ - ٩٨

للحقوق والواجبات المفروضة على كل مواطنى المدينة ، واليهود والمواثيق التى ارتبطت بها ، كانت هناك الفزوات والسرايا التى توج بها بنيان هذه الدولة قبل وفاته مما اتاح لمن اتى بعده الانطلاق بها في مختلف الميادين .

كما ان نظرة الاسلام الى الحياة الانسانية - مستمدا من القرآن والسنة - تستبعد تماما فكرة الرهبانية وتجعل من العقيدة الاسلامية مظلة لكل ما يهم الحياة من امور الدين والدنيا متخطيا بذلك كثيرا من الاخطاء التى وقعت فيها المسيحية فلم تكن هناك سلطة زمنية وسلطة روحية ، ولم يكن هناك رجال دين ولم يكن هناك صدام بين الفكر المدرسي والفكر الفلسفى وانما اتجه الاسلام الى ادماج السلطتين واصبح خليفة المسلمين يمثل الجانبين الزمنى والشرعى واشترط فيه العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، وكان من اهم واجباته الحفاظ على أمن الدولة الاسلامية في الداخل وحماية حدودها في الخارج ، كما اعترف الاسلام بعلماء الدين وليس برجال الدين والفرق بينهما واضح ، ووقف المنهج العقلى عند علماء الكلام وفلاسفة المسلمين يستمد قوته من الاعتماد على اركان الشريعة الاسلامية ، وحتى عندما ظهرت الفرق والاحزاب والدعوات المختلفة كان كل منها يحاول ابراز انتمائه الى الاصول والقواعد الاسلامية حتى لو اضطر الى الدعاوى والاختلاق ومن هنا كانت خصوبة الاسلام حتى في اخرج فترات الانقسامات السياسية والحركات الانفصالية ، ولم يقتصر حمل رسالة الاسلام على جنوده وقواته وانما تعدى ذلك الى الدعاة والوعاظ والفقهاء والتجار وغيرهم .

الفصل الثاني

عوامل التفكك السياسى فى الدولة الاسلامية

● العوامل الداخلية :

- اولاً : الخلافات الحزبية والمذهبية .
- ثانياً : العصبيات القبلية .
- ثالثاً : الشعوية .
- رابعاً : طموحات العناصر الدخيلة .
- خامساً : ظهور العديد من الدويلات الاسلامية المستقلة .
- سادساً : عدم الادراك الواعى لفلسفة العقيدة والفكر الاسلاميين .

● العوامل الخارجية :

- اولاً : العدوان المغولى والصليبي والاستعماري .
- ثانياً : حركة الاستشراق .
- ثالثاً : بعد مسافة التخلف بين الدول الصناعية والدول الاسلامية النامية .

تعرضت الدولة الإسلامية لبعض عوامل الضعف والتفكك والاضمحلال منها ما هو داخلي ذاتي : كالسبئية والعصبيات القبلية وحركات الخوارج والقرامطة والزنج والباطنية والشعوبية والزندقة والحركات الانفصالية واطماع العناصر الدخيلة ، ومنها ما هو خارجي مادي عدواني كالفارات المغولية ، والحركات الصليبية والملا الاستعماري والعدوان الصهيوني ، ومنها ما هو خارجي فكري كالایدولوجيات المستوردة والاتجاهات الفكرية المنحرفة وافتراءات بعض المستشرقين .

العوامل الداخلية :

اولا : الخلافات الحزبية والمذهبية

كانت السبئية المنطلق المذهبي لبعض الحركات الشيعية المتطرفة ، وفي مقدمتها الكيسانية والرافضة والقرامطة وغيرها ، والسبئية نسبة الى « عبد الله بن سبأ » وهو يهودي من أصل يمنى ادعى الاسلام وبدأ يستغل المرارة التي كانت عند بعض العلويين الذين كانوا يؤمنون بأحقية سيدنا علي بن أبي طالب في الخلافة وينحرف بها الى منعطفات واتجاهات رفضها الامام رفضا قاطعا وكذلك انصاره ، ومن بين المبادئ التي اطلقها مبدا الرجعة والوصاية والجلولية وانفراد علي بالامامة ، وقد انضوى تحت لوائه كثير من السطحيين المتعصبين الذين لعبوا دورا كبيرا في اثارة الامصار الاسلامية على الخليفة الثالث عثمان بن عفان لدرجة ان بعض المؤرخين يؤكدون ان عبد الله بن سبأ لم يترك قطرا من الاقطار الاسلامية الا دخله مثيرا الراي العام على « عثمان » ، وكان لبقا ذكيا لماحا استطاع في فترة ما ان يطوى صحابيا جليلا « كابي ذر الغفاري » في الشام ويجمع الفقراء من حوله (١) . ثم انتقل الى البصرة الى ان طرده منها عاملها « عبد الله بن ابي عامر » فرحل الى الكوفة ، وعاد ثانية الى الشام ومنها الى مصر حيث اخذ ينشر دعاويه المنحرفة في لباس من الدين واخذ يروج لنظرية التفويض الالهى التي عرفها في اليمن من خلال السيطرة الفارسية ، واستطاع بأساليبه المعسولة ان يصل الى بعض اهدافه في صبغ مذهب السبئية الذي كان يدعو له بصبغات يهودية ومجوسية وفارسية ، وكان انصاره في مقدمة المحاصرين « لعثمان بن عفان » بل ان واحدا ممن كانوا يؤون ابن سبأ في بيوتهم هو الذي رفع اول ضربة

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٩

على قارئ القرن « عثمان بن عفان » . ومهما يكن من امر فقد كان على بن
أبي طالب يرى من هؤلاء الخارجين على سماحة الاسلام (٢) .

والحقيقة انه على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها رسول الله صلى
الله عليه وسلم طيلة حياته لتحقيق الوحدة العقيدية للمسلمين ، وتغليب
العقيدة الاسلامية على ما عداها من الصراعات الحزبية او المطامع الدنيوية ،
فانه ما كاد ينتقل الى الرفيق الاعلى حتى بدأ خلاف بين الانصار والمهاجرين
حسمه الصحابة فوراً بولاية ابي بكر رضى الله عنه ، واستمرت هذه الوحدة
في عهد عمر بن الخطاب الى ان تفجرت بعض مظاهر الخلاف في عهد الخليفة
الثالث وانتهى "مر باستشهاده ، ثم فتح الباب على مصراعيه بين الامام على
والمعتزيين على بيعته الى ان حسم الموقف لصالح معاوية بن ابي سفيان

ويجب هنا ان نستوضح حقيقة سبق ان ذكرناها ونحن نتحدث عن
عدم التناقض بين التطورات السياسية وازدهار وتقدم الحضارة الاسلامية
وهو ما نؤكد الان وسوف نؤكد في كل مناسبة وهو ان اية خلافات سياسية
او مذهبية او فكرية كانت تطرا على ساحة الدولة الاسلامية لم يكن لها اى
ارتباط مع وحدة العقيدة والتمسك بها بل وصل الامر الى حد استشهاد كل
اصحاب مذهب بمصادر الشريعة الاسلامية من قرآن وحديث وسنة ، وعندما
وصل الحوار الساخن بين المتزمتين من انصار المنهج المدرسي عند اهل السنة،
وانصار المذهب الفلسفى من المعتزلة والكلاميين ، كان كل طرف يحاول ان
يؤكد انتماء فلسفة تفكيره الى الاصول العقيدية الخالصة والمتفق عليها .

نقول ذلك لان بعض السطحيين يتصور في تسجيل المؤرخين لبعض
الحقائق التاريخية في التاريخ الاسلامى خاصة ما يرتبط منها بالخلافات
المذهبية او الفكرية او العصبية ما قد يؤدي الى التشكيك في قدرة الاسلام
على التصدى لهذه الخلافات مع ان الدليل الحى الواضح امامنا انه رغم
الاختلافات العديدة على مدى القرون الاربعة عشرة الماضية حول كثير من
الموضوعات السياسية والمذهبية والفكرية مازال القرآن الكريم هو
القرآن الكريم ، لم يتغير ولم يتبدل وصدق الله العظيم حين يقول « انا
نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وفي عهد الدولة الاموية ظهرت على مسرح الاحداث مذاهب فكرية

وسياسية وكلامية ، وانطلق الخوارج من قماقمهم يشيرون الفتن والقلائل في كل مكان (٣) ، وظهرت بعض الاحزاب السياسية وفي مقدمتها الكيسانية والزيدية ، وانشطرت بعض هذه الاحزاب من داخلها الى عشرات الفرق كما حدث بالنسبة للخوارج ، واعلن كثير من الموالي سخطهم على الدولة الاموية .

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الدولة الاموية في توسيع رقعة الدولة الاسلامية الا ان هذه الثورات المضادة من الداخل ادت في النهاية الى زوالها سنة ١٣٢ هـ وقامت الدولة العباسية وشهدت قرنا كاملا من اعظم فترات وجودها ، الا انها لم تلبث نتيجة تصدر العناصر الدخيلة لمقومات حياتها السياسية والعسكرية ان بدا يدب الضعف الى كيانها السياسي ، وتوارت أسماء الخلفاء وراء الاسماء الفارسية والتركية والبويهية والسلجوقية ، حتى انتهى الامر باغارات المغول على الدولة وانهاء وجودها السياسي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

ثانيا - العصبية القبلية :

ان من يطلع على الصحيفة (او العهد) (٤) الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، والذي يعتبره المؤرخون اول دستور لاول دولة اسلامية ظهرت في الاسلام يجد ان هذا العهد قد أبرز اهتماما خاصا بالقضاء على العصبية القبلية وتنقية الانصار والمهاجرين من شُرور اخطارها واحلال الوحدة العقيدية والايمانية مكانها ، الى درجة انه وضع هذه الوحدة العقيدية قبل الروابط الاسرية نفسها ، فالمؤمنون المتقون على من بغى منهم او ظلم او اثم او افسد بينهم ولو كان احدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

(٣) ينظر بعض المستشرقين والمفكرين الى الخوارج نظرة تقديمية حين يعتقدون انهم يمثلون النظرية الجمهورية في الحكم حين يجعلون من الخلافة حقا لكل مسلم حر ، لا ترتبط ايما ارتباط بالقرشية أو العروبة أو الهاشمية

(٤) ابن هشام : السيرة ح ٢ ص ٩٤ - ٩٨

غير انه حدث في عهد الخلافة الاموية . وفي اواخر الفرع السفيناني ، ان انضم المضربون الى الزبيريين في المطالبة بخلافة «عبد الله بن الزبير» ووقف اليمينيون الى جانب الامويين ، وعادت لأول مرة نيران العداوة العصبية التي اخمدها رسول الله ، في موقعة « مرج راهط » التي ظلت رايتها الخلافة ترفع في كل موقع من مواقع الدولة الاسلامية ، من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ، كلما قام الخلاف بين اليمينيين والمضربين ، الى الدرجة التي اعتبرها بعض المؤرخين اشبه بالداء العضال الذي كان يضعف من قوة الدولة ، ويؤثر على وحدتها وكيانها . لدرجة ان النداء الذي توارثه المضربون جيلا بعد جيل كلما قام الخلاف بينهم وبين اليمينيين او الكلبين « يا ثارات مرج راهط » ، حدث ذلك في المشرق العربي وفي المغرب العربي وفي الاندلس ، بل ان من المؤرخين من يرد كثيرا من الاحداث الاندلسية الى هذه العصبية القبلية التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثا - الشعوبية :

الشعوبية حركة عداوية للعرب والعروبة ، وكانت كما قال البعض سمة حق يراد بها باطل استنادا الى قوله تعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . ولكن هذه الحركة نبئت في اول الامر كظاهرة احتجاج ضد سياسة الدولة الاموية في فارس وما والاها من البلاد التي انضوت تحت الاسلام واتهموها باتجاهات عنصرية تقتصر على اسناد الوظائف الهامة في الدولة كأمانة البلدان وجباية الخراج والشرطة والحسبة والقضاء وقيادة الجند الى العناصر العربية . وقد اشتدت موجة الغضب الشعبي حين اضطر بعض خلفاء الامويين بسبب الخوف من تناقص موارد بيت المال الى ابقاء الجزية عمن يعتنقون الاسلام من الموالي ، وأن تظل اراضيهم اراضي خراجية ولا تتحول الى اراضي عشيرة كتلك التي يفلحها العرب ، ويرى البعض ان ذلك كان من بين الاسباب التي جعلت الكثيرين من الموالي يساندون كل الثورات السياسية والدينية والمذهبية التي قامت ضد الدولة الاموية فوقفوا الى جانب الكيسانيين والخوارج واخيرا ساندوا العباسيين في دعوتهم ضد الامويين حتى سقطت الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ (٥) ولقد

(٥) هناك اتجاهات حديثة للرد على هذه الآراء وتبرئة الامويين من ذلك يمكن الاطلاع عليها في كتابي دولة بني امية للدكتور نبيه عاقل وطبيعة الدعوة العباسية للدكتور فاروق عمر .

كان من المفروض ان تخف وطأة الشعوبية بقيام الخلافة العباسية - اذا صح ما وجه الى الامويين - خاصة وان الكثيرين من الخراسانيين اشتركوا في المواقع التي ادالت الدولة الاموية حتى ان بعض المتطرفين يذكرون ان العباسيين استعانوا بالمطارق الفارسية لدق اعناق الامويين .

غير ان الاتجاهات الشعوبية في الخلافة العباسية ازدادت استشراء ، وخاصة بعد المواقف التي اتخذها خلفاء العباسيين من القيادات الفارسية التي ساندتهم في معركتهم مع الامويين وفي مقدمة هؤلاء « ابي سلمة الخلال » وزير آل البيت ، و « ابي مسلم الخراساني » وقيادات « البرامكة » وغيرهم وراينا الشعوبية تنتقل من مجرد نقد العرب والتحدث عن مثالبهم الى محاولة الحط من شأنهم والحديث عن جهالتهم وجلافتهم وسوء تدبيرهم ، واخذت كتب الشعوبيين في مثالب العرب ونقائصهم تبرز الى الوجود ثم تطور الامر الى انتقال الشعوبية الى مرحلة الزندقة والتطاول على الديانة الاسلامية ، ونقد القرآن الكريم ، والعودة الى ايقاظ الديانات والمذاهب الجوسية القديمة ، وظهور الحركات العدائية للإسلام والمسلمين وفي مقدمتها حركات البابكية والحزمية والمقنعية والخراسانية الفاطمية التي تنتمي الى فاطمة بنت الخراساني وغير ذلك من الحركات الهدامة في جسم الدولة ، مما دعا العرب وعلماء الفقه والكلام للرد على هذه السموم العاتية بالقول والحوار والمؤلفات ، وانشأ المهدي العباسي ديوانا خاصا بهؤلاء الشعوبيين الزنادقة ، كانت مهمته محاولة اقناع هؤلاء بالعودة الى الرشيد والرد على المفتريات واثارة الحوار حتى اذا لم يجد كل ذلك نفعا سيقوا الى صاحب الزندقة ليقتلوا كما حدث بالنسبة لابن المقفع وبشار بن برد (٦) .

رابعاً - طموحات العناصر الداخلية :

الإسلام دين عالمي شامل يتسع لكل الناس والشعوب والأمم والقبائل ، مصداقاً لقوله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . ومن هذا المنطلق كان رفض الإسلام للتمييز العنصري والتفرقة بين الناس على أساس من السلالة أو اللون أو الثروة ولذلك فان مجرد دخول وانضمام عناصر وشعوب وأمم في الإسلام وانخراطها في إطار الدولة الإسلامية لا يشكل تهديداً أو خطورة على الدولة ، بل على العكس من

(٦) انظر الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع للقاسم بن ابراهيم .

ذلك يؤكدشمولية وعالمية الاسلام ، وهى طبيعة الامور في اطارالعقيدة ، وكثيرا ما قام مسلمونمن غيرالعرب بأدوار ريادية في الفكر والعلم والسياسة والحرب، بل انمعظم علماء العلوم العقلية والنقلية كانوا من بين هذه الشعوبالاسلامية . ولكن الخطورة تكمن حين تتحول بعض هذه العناصر « بعيدا عن سماحة الاسلام » تتحول الى ادوات لاضعاف نظام الدولة الاسلامى كما حدث في محاولات بعض المتطلمين من زعماء الخراسانيين في الدولة العباسية ثم تسلط الاتراك والبويهيين وغيرهم مما ادى الى اضعاف الخلفاء العباسيين، وانهاء الدولة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م .

لقد كانت اطماع قيادات هذه العناصر في العصر العباسي الثانى عاملا ليس فقط في اضعاف امر الخلفاء العباسيين وانما في المساعدة على خلق كيانات ودويلات مستقلة اضعفت من وحدة الدولة الاسلامية .

خامسا - ظهور العديد من الدويلات الاسلامية المستقلة :

كان من نتيجة الحركات الشعبوية وطموحات زعامات العناصر الدخيلة ان تفككت عرى وحدة الدولة الاسلامية شرقا وغربا ، وبدأت الصراعات المختلفة تقوم بين هذه الدول وبعضها وأن الدارس لتاريخ الدولة الاسلامية ابتداء من العصر العباسى الثانى يللمس الى حد كبير قيام هذه الدويلات وسقوطها وصراعاتها وخلافاتها مما كان له تأثير كبير على وحدة الدولة الاسلامية ابتداء من العصر العباسي الثانى . ونحن لا ننكر ان بعض هذه الدويلات قد وصلت الى حد من الازدهار السياسي والفكرى ، بل ان كثيرا من عمليات التوسع الاسلامى شرقا وغربا قامت على اكتاف هذه الدول، ولكنها في النهاية لم تكن الا عاملا من عوامل الضعف والتفكك العام في محيط الدولة الاسلامية . وما يقال عن المشرق العربى يمكن ان يقال عن المغرب العربى ، والاندلس خاصة بعد سقوط الخلافة الاموية الاندلسية سنة ٢٢٢ هـ وقيام الدويلات المستقلة في ظل نظام اقطاعى اتاح في النهاية للقوى المسيحية المعادية انهاء الوجود الاسلامى في الاندلس .

سادسا - عدم الادراك الواعى لفلسفة العقيدة والفكر الاسلاميين :

سبق ان تناولنا بالحديث عدم وجود اى تناقض بين العقيدة والفكر في الاسلام ، وان الدين الاسلامى دين شمولى يجمع بين الدين والدنيا مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « اعمل لدينك كأنك تموت غدا واعمل لدنياك

كأنك تعيش ابدا » . وليس ابلغ من هذا الحديث دليلا على انه لا رهبانية ولا كهنوتية ولا انعزالية في الاسلام ، ولكن بعضا ممن لم يكن عندهم تصور واضح لفلسفة العقيدة والفكر الاسلاميين تصور لفترة من الفترات ان الدين الاسلامى يقتصر على مجرد العبادات الظاهرة وأنه يتعارض مع مظاهر التطور العلمى والفكرى الانسانى ، ونحن لا ننكر على الدولة العثمانية مثلا دورها القيادى في الذود عن كثير من الاراضي الاسلامية ضد الهجمات الصليبية الشرسة الآتية من جانب الاسبانين والبرتغاليين عقب نجاحهم في ازالة الدولة الاسلامية في الاندلس ، والحيلولة دون الافكار الاجرامية ضد الاماكن المقدسة ، ولكن عدم الادراك الحقيقى لفلسفة وفكر الاسلام وقف حائلا دون عمليات التطور الفكرى والحضارى ، في وقت بدأت فيه الحركات السياسية والانقلابات الصناعية تجتاح اوربا مما ادى الى اصابة العالم الاسلامى بظاهرة التخلف الحضارى وقد اتاح ذلك للاستعمار الاجنبى استغلال هذا الركود والجمود لبسط ظلاله على كثير من البلاد الاسلامية الواقعة في اطار الدولة العثمانية .

العوامل الخارجية

أولا : العدوان المغولى والصليبي والاستعماري :

مهدت كل هذه العوامل الداخلية او بعضها ان تتعرض الدولة الاسلامية لموجات متوالية من العدوان الخارجى باشكاله المادية العسكرية والاقتصادية واشكاله الفكرية بأبعادها المختلفة .

ومن القوانين الاجتماعية والتاريخية المعروفة ان العدوان على امة من الامم يبدأ أولا من الداخل بل ان من النظريات الحديثة في تاريخنا المعاصر ان الغزو كله يبدأ وينتهى من الداخل وفي الداخل .

وهكذا تعرضت الدولة الاسلامية للعدوان الخارجى عليها اعتبارا من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وتمكن المغول من تقويض الدولة العباسية بعد ان استمرت فى الحكم قرابة خمسة قرون ونصف ، ثم حاولوا اجتياح بقية العالم الاسلامى لولا وقوف مصر الاسلامية ضد هذا الغزو وانهاء هذا الزحف المدمر للحضارة الاسلامية عند عين جالوت في النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى .

في اثناء ذلك كانت الصليبية المسيحية تستعد لعدوانها على العالم الاسلامى الذى كان يقترب رويدا رويدا من رثتها المسيحيين في روما وبيزنطة . وظهرت في اوربا موجة صليبية عاتية تتجه للقضاء على الكيان الاسلامى ، وقد بدأت هذه الموجة اول ضرباتها في المغرب الاسلامى والاندلس في محاولات للقضاء على الوجود الاسلامى في اسبانيا ، وفي نفس الوقت كانت الحملات الصليبية تتابع واحدة بعد الاخرى ، الى ان تمكنت الوحدة المصرية السورية بقيادة صلاح الدين الايوبى من وقف هذا المد الصليبي .

وليس من شك في ان ذلك كله قد اصاب العالم الاسلامى بضربات شديدة في مختلف مواقعه مما اتاح للحركة الاستعمارية المادية والاقتصادية ان تجد سبيلها الميسر الى مختلف اراضيه وتحولت الشعوب الاسلامية الى افواه مستهلكة لكل ما ينتجه الانقلاب الصناعى الاوروبى ، وبدا الامر باحتلال انجلترا لعدن سنة ١٨٣٩ م ومحاولة فرض السيطرة على شرق وجنوب شرق الجزيرة العربية ، واحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ م وتونس ١٨٨١ م ، وبريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ثم لم تلبث ان احتلت ايطاليا ليبيا واحتلت فرنسا مراكش ، ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الاولى حتى كان الهلال الخصيب كله تحت الاحتلال الاجنبى .

ثم كانت الطامة الكبرى حين تمت الزيجة السياسية بين الامبريالية الاستعمارية والصهيونية العالمية في اواخر القرن التاسع عشر واولى القرن العشرين ، وكانت هدية هذه الزيجة تقديم فلسطين للصهيونية العالمية، ومنذ ذلك الوقت والامبريالية الاستعمارية والصهيونية العالمية تشكلان اكبر خطر يهدد العالم العربى والاسلامى بوجه عام .

ثانيا : حركة الاستشراق :

ولم يقتصر العدوان الخارجى على العالم الاسلامى في جانبه المادى والعسكرى وانما تمثل في عملية التسرب الفكرى والثقافى التى تعتبر اشد خطرا وفتكا فمئذ القرن الخامس عشر الميلادى ومحاولات المخاطرين والمكتشفين الاجانب مستمرة في العدوان على تراثنا الفكرى والثقافى بطرق واساليب مختلفة، منها ما يتسم بالعلنية، ومنها ما يتسم بالسرية، وانشئت كليات ومعاهد الاستشراق في دول اوربا الغربية ، حيث كان ينقل اليها ما امكن حمله من مصادر التراث الاسلامى .

وكثيرا ما قرانا وسمعنا لعشرات البعثات الاستكشافية والارساليات التبشيرية الموفدة من المعاهد الاستشرافية والهيئات الكنسية، التي كانت تستهدف في الاصل الاستئثار بالصادر الاسلامي ، وغسل العقول البدائية من اركان العقيدة ، وانشئت المؤسسات التربوية والتعليمية والصحية في الداخل ، كما آلت الكتب والمراجع المليئة بالمغالطات المكشوفة في التاريخ الاسلامي .

وليس من شك في أن ما قامت به الجامعات الاسلامية ، وما زالت تقوم به من كشف لهذه المغالطات العلمية بالاساليب العلمية الصحيحة، إنما يمثل دورا اساسيا في اضعاف موجات الالحاد والتشكك والتيارات الفكرية التي قد يتعرض لها الشباب الاسلامي .

ثالثا : بعد مسافة التخلف بين الدول الصناعية والدول الاسلامية النامية :

يضاف الى كل ما سبق بعد مسافة التخلف بين الدول الصناعية والدول الاسلامية النامية ، ذلك البعد الذي يزداد اتساعا يوما بعد يوم بسبب عملية التطور العلمي والتكنولوجي عند الدول الصناعية خاصة وان هذه الدول تسعى جاهدة للحيلولة دون المحاولات التي تبذلها الدول الاسلامية للحصول على التكنولوجيا الحديثة ، وانتقالها من مرحلة الدول المستهلكة الى مرحلة الدول المنتجة .

وعلى الرغم من الخلافات التي قد تبدو بين الكتل المتصارعة في عالم اليوم الا انها تتفق على شيء واحد وهو الوقوف في وجه هذا العملاق الاسلامي بشتى الطرق لانهم يقرأون التاريخ ويعلمون الى اى حد تمتد جذور هذا العالم الاسلامي الى الاعماق .

ولعلنا نذكر في هذا المجال ذلك المؤتمر الذي عقد في لندن سنة ١٩٠٧ واكتملت فيه كل الدول الصناعية الاستعمارية برياسة كاميل بنرمان رئيس الوزراء البريطاني وكان هذا المؤتمر ينظر في الوسائل التي توصل الى الابقاء على الظاهرة الاستعمارية في مواجهة حركات التحرر ، وانتهى النقاش الى أن العالم الاسلامي يشكل الخطر الرئيسي لمستقبل الدول الصناعية ، وكانت العقيدة القرآنية واللفظة المشتركة من بين الاسس التي رؤى التركيز على ضرورة اضعافها وتصفيتها ووضعت سياسة هذا المؤتمر على اساس تشجيع

اللهجات العامية . واضعاف العقيدة الاسلامية واثارة الطائفية الدينية والعنصرية وخلق دولة يهودية في قلب هذا العالم الاسلامى تمتص كل موارده القومية الرئيسية ، وزيادة مساحات التخلف بين الدول الصناعية المتقدمة والدول الاسلامية النامية .

وعلى الرغم من امتلاك العالم الاسلامى لأكبر نسبة من اعظم مصادر الطاقة وهو البترول ، واعتماد الدول الصناعية على هذا النفط الا ان السياسة المخططة لهذه الدول بمؤسساتها الضخمة وشركاتها العالمية وامكانياتها الواسعة تحول دون شك في الوصول الى ما تصبو اليه الدول البترولية الاسلامية من تطور وتقدم يواكب التطور والتقدم العالميين .

ولا زال الصراع محتدما بين الجانبين الدول الاسلامية البترولية تسعى الى توكيد حقوقها : والحصول على عائداتها كاملة . والدول الصناعية متشبثة بسياستها التقليدية التى تقوم على ان الشرق شرق والغرب غرب .